

الشيخ اليوسف: التوابل الاجتماعي مع الآخرين مصدر سعادة وابتهاج

قال الشيخ الدكتور عبد الله أحمد اليوسف في خطبة عيد الفطر الأولى غرة شهر شوال 1444هـ الموافق 22 أبريل 2023م أن شكر الله سبحانه وتعالى على نعمه وآلائه واجب عقلاً وشرعياً، وهي من موجبات الزلف والرضا عنده عزّ وجلّ، وسبب لمضايقة نعمه ومنحه للشகور الشكور.

وأضاف قائلاً: للشكير أثر عظيم في زيادة النعم وديموتها، وأما كفران النعم وجودتها، والجهل بقيمها وأقدارها، وعدم شكر الله عليها فهي من موجبات غضب الله سبحانه ونزع النعم وانهيار الأمم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَمَرَبَ اللَّهُ مَذْلَلٌ قَرْيَةٌ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَةً يَا تَرِيهَا رَزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَافَرَتْ بِأَنَّ رَبَّهَا فَأَذْهَافَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُنُونِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

وتابع: حذرت النصوص الدينية على شكر الله تعالى، حتى يتخلق العبد بهذا الخلق العظيم، وهذه الصفة النبيلة؛ وإنما في ذلك إلهام من الله تعالى لعباده، وليس بحاجة إليهم؛ وإنما يمتحن عباده بذلك؛ فينظر من يشكر ومن يكفر، ثم إنهم هم المحتاجون لشكيره حتى ينعم عليهم بالمزيد من النعم والمنح الإلهية، ويبارك لهم فيها، وحتى يفوزوا برضاه ومحبته ومغفرته في الآخرة.

وقال: ينبغي شكر كل نعمة بما يلائمها من صور الشكر؛ فشكير اللسان بحسن المقال واحتساب القول الفاحش والبذيء، وشكير العين بالنظر في المباحثات وفي التأمل والاعتبار، وعدم النظر إلى ما حرّم الله، وشكير اليد باستعمالها في المباحثات والطاعات وكفها عن الأذى والتعدي على الآخرين، وشكير العلم بالعمل به وتعليمه ونشره، وشكير المال بإنفاقه فيما يرضي الله سبحانه و عدم إنفاقه في المحرمات.

وأوضح أن أشكير الناس أشكيرهم لخلفه؛ إذ أن شكر من يستحق الشكر هو شكر الله سبحانه، لما روى عن الإمام زين العابدين عليه السلام : «أشكر رُكُوم لله أشكـر رُكُوم للناس» للتأكيد على شكر المحسنين؛ مع ملاحظة أن الشكر واجب عقلاً وشرعياً، ولغيره أمر راجح في نفسه ومطلوب عقلاً وأخلاقاً .

وأكيد على أنه يأتي في طليعة من يستحقون الشكر بعد الله عزّ وجلّ هو شكر الوالدين، فهم أحق الناس بالشكير بعد شكر الخالق لفضلهما على أولادهم، وقد أكيد القرآن الكريم على ذلك في قوله تعالى: ...

وأشار إلى أن تقديم كلمات الشكر والثناء لكل من يعمل عملاً حسناً أمر مطلوب أيضاً لإظهار المشاعر الإيجابية تجاههم، وتشجيعهم على فعل المعروف، فتقديم الشكر للزوجة على ما تبذله في المنزل من أعمال بيئية يعزز لديها الحماس والاندفاع أكثر في خدمة زوجها وعائلتها، وتقديم الزوجة آيات الشكر والامتنان لزوجها الذي يتعب ويكدح لتوفير الكسب الحال كي تعيش أسرته بكرامة وسعادة يدفعه أكثر لبذل المزيد من الجهد لتوفير المستلزمات وال حاجات المنزلية.

وبين أن للشكر والثناء على أعمال الآخرين الحسنة تأثيراً إيجابياً في تحفيزهم نحو زيادة أعمالهم الحسنة وأفعالهم الجميلة؛ وأبدى أسفه لأن قسماً من الناس يعاني من الجفاف الأدبي في التعامل مع الآخرين، ويبخل عليهم بأدنى كلمة شكر أو تقدير، ويتعامل مع الناس وكأنهم قطعة من الأحجار أو الصخور!

ودعا إلى شكر العاملين في خدمة المجتمع، والمساهمين في تطويره، كأعضاء الجمعيات الخيرية، وكوادر الأعمال الدينية والتطوعية، والمساهمين في المشاريع والمبادرات الخيرية وغير الربحية وغيرها من أفعال المعروف؛ لأنه يعزز السلوك الإيجابي في المجتمع، ويحفز أهل المعروف على مضاعة أفعال الخير والإحسان؛ بخلاف من يكثر من النقد السلبي لأي عمل خيري، ويطعن في أصحاب الأعمال التطوعية فإن ذلك يولّد حالة من السلبية والتشاؤم في الوسط الاجتماعي.

وختم خطبته الأولى بالقول: إن على المؤمن ألا ينتظر شكرآ من أحد لأعماله الحسنة، وألا يكون دافعه شكر الشاكرين له ومدحهم له، بل أن يكون دافعه الأساس هو الإخلاص لله تعالى والحصول على الأجر والثواب، كما قال تعالى: إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً فالعمل لوجه الله يجب أن يكون هو الأصل والداعي في سيرة الإنسان المؤمن، وليس البحث عن الشهرة والتفاخر أو المدح والثناء.

وفي الخطبة الثانية تحدث الشيخ يوسف عن أهمية التواصل الاجتماعي مع الآخرين وخصوصاً في المناسبات المهمة كالأعياد قائلاً: من الأمور المهمة في حياة الإنسان التواصل مع الناس، والتفاعل الإيجابي معهم، وحضور مناسباتهم الاجتماعية العامة في الأفراح والأتراح، ومشاركتهم في السراء والضراء؛ فهذا التواصل الاجتماعي مع الآخرين مصدر من مصادر السعادة والسرور والبهجة والارتياح.

وأضاف: لأن الإنسان كائن اجتماعي بطبيعة لا يمكنه الاستغناء عن التواصل معبني جنسه، فهو يأنس بهم، ويأنسون به، ولذا لا يمكن أن يشعر أي إنسان بالراحة والسعادة لو ترك يعيش لوحده حتى لو تم توفير كل المستلزمات الحياتية ووسائل الترفيه والراحة له، ولكنه حرم من رؤية الآخرين والتواصل معهم.

وتابع: كلمة الإنسان مشتقة من مادة «أنس» كما يقول اللغويون، فهو يأنس بمثله، ويشعر بالسعادة عندما يخالطهم ويجالسهم، والحاجة إلى الأننس بالآخرين أمر بدائي وفطري، ولا يتحقق ذلك إلا عبر التواصل معهم والتالق مع من يختلط بهم.

ولفت إلى أن الإنسان المنعزل عن الناس، والمنطوي على ذاته يعاني - غالباً - من اعتلالات نفسية واضطرابات باطنية وأمراض أخلاقية ومشاكل اجتماعية نتيجة انعزاليه عن الآخرين، وابتعاده عن المجتمع، ويتتحول بمرور الزمن إلى إنسان مستوحش ومتتوحش، مما ينعكس سلباً على تصرفاته وسلوكياته وأخلاقياته.

وأوضح أنه في الماضي كانت الناس أكثر تواصلاً مع بعضهم البعض رغم بساطة الحياة، وشطف العيش، ومع ذلك كانوا أشد تقارباً، وأكثر انسجاماً، وأما اليوم فقد ساهمت بعض التحولات الحديثة على انخفاض روح التواصل الاجتماعي لصالح الاهتمامات الفردية الخاصة، وأمسى كل واحد منا مشغول بحاله وعائلته، ودائماً ما نسمع كلمة (أنا مشغول) للتبرير عن غيابه الاجتماعي أو عدم رغبته بالقيام بأي دور أو مسؤولية اجتماعية عامة.

وبين تأكيد التعاليم والوصايا الإسلامية على التواصل والتزاور والتعارف بين الناس، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا أَيْسُوهَا النَّاسُ إِذَا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِيلَ لِتَتَعَارَفُوا﴾ والتعارف لا يتم إلا عبر التواصل والتداخل مع الناس، ولذا قال الإمام علي عليه السلام - وهو على فراش الموت موصياً ولديه الحسن والحسين عليهما السلام : «عَلَيْكُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْتَّوْاصِلِ وَالْتَّبَادُلِ وَالْتَّبَارِ، وَإِيمَانُكُمْ وَالْتَّقَاطُعُ وَالْتَّدَابُرُ وَالْتَّفَرِّقُ وَالْمُهَاجَرَةُ» وعنه عليهما السلام : «عَلَيْكُمْ بِالْتَّوْاصِلِ وَالْمُوافَقَةِ، وَإِيمَانُكُمْ وَالْمُقَاطَعَةِ وَالْمُهَاجَرَةِ» ووصية الإمام لأولاده وهو على فراش الموت بهذه الوصية الاجتماعية يؤكد أشد التأكيد على أهمية التواصل مع الآخرين في حياة الإنسان، وينهى أشد النهي عن التقاطع والتنافر والانعزال.

وقال الشيخ يوسف إن للتواصل الاجتماعي علامات ومصاديق متعددة، ومنها: صلة الأرحام والأقارب، فالإنسان دائم التواصل والتزاور مع أرحامه هو إنسان اجتماعي، وأما قاطع الرحم غالباً ما يكون منخفض الروح الاجتماعية، ويميل إلى الانعزال والانكفاء على الذات.

وأكَد على أنَّ مِنْ مَصَادِيقِ وَعَلَامَاتِ التَّوَالُعِ الاجتماعيِّ: هُوَ التَّزَاوُرُ بَيْنَ النَّاسِ، وَزِيَارَةُ الْآخَرِينَ بَيْنَ الْفَيْنَةِ وَالْآخَرِيَّ فِي مَجَالِسِهِمْ وَدِيوانِيَّاتِهِمْ، خَصُوصًاً فِي الْمَنَاسِبَاتِ الْدِينِيَّةِ كَالْأَعْيَادِ وَالْمَنَاسِبَاتِ الاجتماعيةِ العامةِ كالزَّوْاجِ.

وَشَدَّدَ عَلَى أَنَّ مِنَ الْأَمْرَوْنِ الْمُهِمَّةِ زِيَارَةُ كَبَارِ السَّنِ، فَهُمْ يَأْنِسُونَ بِزِيَارَةِ أَوْلَادِهِمْ وَأَحْفَادِهِمْ وَأَرْحَامِهِمْ إِلَيْهِمْ، وَأَمَّا تَرْكُهُمْ لَوْحَدَهُمْ وَغَيْرَهُمْ فَيَوْحِشُهُمْ، وَيَتَرَكُ جَرْوَاهُ غَائِرَةً لَا تَنْدَمِلُ فِي قُلُوبِهِمْ بِسَهْوَلَةٍ؛ وَمِنَ الْمُحْزَنِ حَقًاً مَا نَسْمَعُهُ مِنْ تَصْرِيفَاتِ غَيْرِ لَائِقَةٍ مِنْ قَبْلِ الْبَعْضِ، حِيثُ يَذْهَبُونَ بِكَبِيرِ السَّنِ إِلَى دَارِ الْعِجَزَةِ وَيَضْعُونَهُ عَنْهُمْ، ثُمَّ يَتَرَكُونَ زِيَارَتَهُ أَوَ السُّؤَالَ عَنْهُ أَوَ الْإِهْتِمَامَ بِأَحْوَالِهِ، مَا يَسْبِبُ لَهُ آلاَمًاً نَفْسِيَّةً شَدِيدَةً.

وَقَالَ: إِذَا كَانَتْ زِيَارَةُ الْآخَرِينَ أَمْرًاً رَاجِحًاً فِي حَدِّ نَفْسِهِ، فَمِنَ الْأَوْلَى زِيَارَةُ الْأَرْحَامِ وَالْأَقْارِبِ، وَخَصُوصًاً كَبَارَ السَّنِ مِنْهُمْ.

وَلَفَتَ إِلَى أَنَّ مِنْ مَصَادِيقِ التَّوَالُعِ الاجتماعيِّ أَيْضًاً: هُوَ الْمَشَارِكةُ الْحُضُورِيَّةُ فِي أَفْرَاجِ الْآخَرِينِ كَالزَّوْاجِ، وَفِي أَطْرَافِهِمْ كَمَوْتِ قَرِيبِهِمْ، أَوْ لَا أَقْلَ مَشَارِكتِهِمْ عَبْرِ الْوَسَائِلِ الْحَدِيثَةِ كَالْهَاتِفِ النَّقَالِ، أَوْ تَطْبِيقَاتِ التَّوَالُعِ الاجتماعيِّ.

وَتَابَعَ: وَكَذَا يَنْبَغِي الْحُضُورُ الاجتماعيُّ فِي الْمَنَاسِبَاتِ الْعَامَّةِ كَالْفَعَالِيَّاتِ الاجتماعيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَالتطوعيَّةِ وَالرِّياضيَّةِ وَغَيْرُهَا مِنَ الْمَنَاطِقِ الاجتماعيَّةِ الَّتِي تَقَامُ فِي الْمَجَمِعِ.

وَاعْتَبَرَ أَنَّ مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي لَهَا بَعْدُ اجتماعيٍّ - بِالإِضَافَةِ إِلَى الأَبعَادِ الْآخَرِيَّ - صَلَةُ الْجَمَاعَةِ، فَحُضُورُ الْإِنْسَانِ يَوْمِيًّا لِلْمَسَاجِدِ لِلِّالْتَّحَاقِ بِصَلَةِ الْجَمَاعَةِ يُعَزِّزُ التَّوَالُعِ الاجتماعيَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُصْلِينَ، وَتَقوِيَّةُ أَوْاصِرِ الْعَلَاقَةِ وَالصَّدَاقَةِ مَعَهُمْ، وَزِيادةُ تَعْرِفَ بَعْضُهُمْ مَعَ الْبَعْضِ الْآخَرِ.

وَخَتَمَ خُطبَتِهِ قَائِلًاً: إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَحْيِي هَذِهِ الْقِيمَةِ الْدِينِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ بَعْدَمَا تَرَاجَعَتْ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي الْمَاضِ بِسَبِيلِ التَّحْوِلَاتِ الْمُتَسَارِعَةِ فِي حِيَاتِنَا الْمُعاصرَةِ، وَأَنْ نَنْمِي حَالَةَ التَّوَالُعِ وَالتَّزَاوُرِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمَجَمِعِ، وَأَنْ نَخْصُصَ وَقْتًاً مِنْ بَرَنَامِنَا الْيَوْمِيِّ لِلتَّوَالُعِ الاجتماعيِّ مَعَ النَّاسِ.

وَدَعَا إِلَى اغْتِنَامِ فَرْصَةِ التَّوَالُعِ مَعَ الْآخَرِينَ لِتَقْوِيَةِ التَّالِفِ وَالْإِنْسَجَامِ مَعَهُمْ، فَمِنْ صَفَاتِ الْمُؤْمِنِ الْأَلْفَةِ وَالتَّالِفِ، لَمَّا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا

بُؤْلَفُ «وعنه ﷺ»: «المؤمنُ إلَّا فُ مَأْلُوفٌ».